حفلة دار الكتب الظاهرية[1]

خطاب الاستاذ عز الدين التنوخي

كاتب سر المجمع العلمي العربي

باسم المجمع العلمي أشكر لكم عنايتكم بحضور هذه الحفلة المباركة ، حفلة تنظيم دار الكتب الظاهرية ، ذات الفضل العظيم على دمشق مدينتنا الخالدة وعلى سائر البلدان العربية ، وهي لعمر الحق جديرة بأن نحتفل بعيدها الخمسيني أو الستيني لمرور نحو من ستين عاماً على إنشائها ، ولعل هذه الحفلة تكون ممهدة لذلك العيد العلمي الميمون ، ويكون يومئذ قد مضى على تأسيس المجمع العلمي عشرون سنة فنحتفل بعيده العشريني وعيد المكتبة الخمسيني معاً احتفالا شعبياً يشترك به نواب المعاهد والمجامع والجامعات العلمية العربية والاجنبية ، ويدعى اليه علماء المشرقيات في ديار الغرب ، وجلهم من أعضاء مجمعنا الذين يستنحون الفرص لزيارة دار الشام عامة ودمشق حاضرتها خاصة وفي ذلك ما فيه من إعلاء لشأن أمتنا العربية ودولتنا الناهضة الفتية .

إن هذه الدار التي نحن مجتمعون الآن في صحنها كانت تعرف بالمدرسة الظاهرية الجوانية ، وهي بقية ثلاث مئة مدرسة كانت عامرة في القرون الوسطى بالعلم والأدب في مدينتنا هذه العظيمة ، و كانت مدرسة للحنفية والشافعية يدرسون فيها الحديث وعلومه ، وقد أنشأها الملك الظاهر بيبرس البندقداري ودفن فيها هو وابنه الملك السعيد سنة ٦٧٦ هـ ، ولا تزال على هذه المدرسة

---

(١) انظر وصفها في باب (الآراء والاخبار) من هذا الجزء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مسحة باقية من جمالها القديم يبدو في موضعين منها : في مدخل الظاهرية الجميل، فان الداخل يمتع ناظريه بهندسته العربية الرائعة ومقرنصاته المتهدلة ويشاهد في زاوية المدخل اليسرى اسم مهندسها العربي « ابراهيم بن غانم » ، والموطن الثاني لهذا الجمال هو القبة الظاهرية التي دفن تحتها هذا الملك الشامي المجاهد ودفن الى جانبه ابنه الملك السعيد ، إن هذه القبة لتمتاز على قبب الشام كلها ، ولعلها نادرة القبب في بلاد العرب ، بما ازدانت به من أصناف الرخام الملون الجميل ، فقد ركبت ألواحه على جدرانها بتراكيب هندسية عربية ، كما أن هذه القبة بفسيفسائها اللامعة ونقوشها الشجرية الفاتنة التي لاعيب فيها غير أغصانها وكمال اتقانها .

وكان لكل مدرسة في دمشق خزانة كتب خاصة تشتمل على نفائس الكتب وكثير منها بخطوط مؤلفيها ، ثم بلغ من اهمال العلم في دمشق أن أمسى قوام هذه المدارس للفقر وقلة الراتب وضعف الشعور بالواجب يبيعون هذه المخطوطات ، وأقبل الاجانب من قناصل ومستشرقين يشترون تراث السلف بابخس الاثمان ، مما ألقى في روع عالم الشام وباعث نهضتها العلمية الشيخ طاهر الجزائري أن يجمع شتات هذه المبعثرات من خزائن الكتب ويضعها في القبة الظاهرية ، فأشار على الوالي بذلك وهو حمدي باشا فألف سنة ١٢٩٦ للهجرة لجنة خاصة جعل رئيسها العلامة السيد علاء الدين عابدين ، فجمعوا هذه الكتب من عشر مدارس ووضعوها في خزائن كبيرة تحيط بضريح الملك الظاهر الذي عاش في حياته تحت ظلال السيوف البواتر ، ودفن بعد مماته تحت ظلال الكتب والدفاتر ، ومع أن القائمين على هذه الكتب المجموعة قد خصصت لهم مرتبات ليحسنوا القيام عليها ، لم ينتفع الناس بها الانتفاع المنشود ، وظلت نصف مسبلة في الخزائن المقفلة ، ولكنها حفظت من النهب والضياع ولا سيما بعد طبع فهرسها الجامع لمخطوطاتها ومطبوعاتها ، وبقي أمر الخزانة الظاهرية على هذه الحال الى أن وسدت الحكومة أمر الولاية عليها الى المجمع العلمي العربي يوم انشائه في سنة ١٩١٩ ، وكان يومئذ في المدرسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الظاهرية القديمة مدرسة ابتدائية تعرف بانموذج الملك الظاهر ، فبذل المجمع قصارى جهده لنقل هذه المدرسة الى بقعة أخرى من المدينة ، لأن صياح الصبيان وضجة حركاتهم المقلقة تعكر صفو المطالعة ، وتضعف حب البحث والمراجعة ، وقد توفق المجمع بأخرة وانتقلت المدرسة الجديدة من القديمة .

وكان من الوفاء للشيخ طاهر الجزائري الذي له اليد البيضاء على الخزانة الظاهرية أن يقلّد الولاية عليها ، فسماه المجمع مديراً عاماً لها وظل يديرها الى أن استأثر الله به ، وجدير بالحكومة إذا أشادت دار كتب عامة لدمشق أن تقيم له تمثالاً في ساحتها كما يجمل بنا أن نسمي حجرة المخطوطات بالخزانة الظاهرية تيمناً باسمه الخالد الميمون .

ورغبة في زيادة كتب الخزانة الظاهرية أرسل المجمع العلمي إلى مصر خلية الشيخ طاهر في منصبه وهو الشيخ حسني الكسم الذي استفرغ في مصر مجهوده مستهدياً للخزانة الظاهرية مطبوعات المؤلفين والكتبيين فحمل اليها مجموعة مباركة تتألف من ١٦٠٠ مجلد ملأت عشرة صناديق ، منها ما أهدته دار الكتب المصرية ، والمكتبات التجارية ، ومنها ما أهداه كبار المؤلفين والناشرين أمثال السادة رشيد رضا وأحمد الاسكندري ومحمد الخضري وأحمد تيمور ورفيق العظم وخير الدين الزركلي .

أما العلامة أحمد تيمور فقد أهدى علاوة على الكتب مجموعة نفيسة من المسكوكات القديمة تشتمل على ٤٨٢ قطعة من ذهبية وفضية ونحاسية وزجاجية ومن خواتم قديمة نقش بعضها على جواهر كريمة ، وهي اليوم محفوظة في قبة التربة العادلية .

وحسبنا أن نوجز القول بأن كتب الخزانة الظاهرية كانت يوم تولى المجمع عليها تشتمل على ٤٠٠٠ مخطوطة وقليل من المطبوعات ، فأصبحت في يوم الناس هذا تشتمل حناياها على ٢٥٠٠٠ مجلد ما بين مخطوط ومطبوع ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فضلا عن المجلات المختلفة اللغات ، وفيها من الكتب الفرنسية والانكليزية والالمانية ما يفيد المراجعين والمطالعين .

وقد أهدى اليها قبيل وفاته المؤرخ الدمشقي الكبير المرحوم رفيق العظم خزانة كتبه ، ومثل هذه المأثرة النبيلة قد فعل الشيخ عبد الله الكزبري من بيوتات العلم بدمشق ، فحفظت الظاهرية كتبهما في خزانتين خاصتين ؛ ويتسع بي مجال المقال جداً إذا أردت أن أسرد على مسامعكم أسماء جميع الذين أعانوا دار الكتب الظاهرية بالمخطوطات والمطبوعات كالشيخ سليم البخاري والشيخ محمد بهجة البيطار ، والشيخ أحمد فهمي العطار ، والأمير طاهر الجزائري وأمثالهم جزاهم الله خيراً .

وقد أراد المجمع العلمي أن يتم تنظيم دار الكتب الظاهرية على نمط التنظيم الأوربي الحديث ، فأوفد إلى باريس الأستاذ يوسف العش ليدرس في مدرسة السجلات Ecole des Chartes أصول ترتيب الكتب وتنظيم دورها فمكث ثلاث سنوات أخذ في آخرها شهادتها ، ثم زار بعد ذلك خزائن كتب فرنسة في أشهر مدائنها مثل ليون ديجون وآفينيون وبوردو وطور وغرنوبل وغيرها ، وسيبيّن لكم طريقة التنظيم [1] التي اختارها لدار الكتب الظاهرية ثم يعرض على أنظاركم في آخر هذه الحفلة هذه الطريقة التي سهلت سبيل المطالعة ويسّرت أساليب المراجعة للمطالعين والمراجعين جميعاً .

هذه هي بعض أعمال المجمع العلمي في دار الكتب الظاهرية ، ولم يغفل الاهتمام بنشر اللغة العربية في سائر البلدان الشامية ، فاهتم بجلب حاضرة الادب على عهد الدولة الحمدانية فافتتح فيها فرعه الحلبي في تشرين الأول من سنة ١٩٢٣ مختاراً له من أعضائه أفضل علماء حلب المعروفين بخدمة اللغة العربية ، وأنشأ لفرع المجمع العلمي هذا خزانة كتب يرجع اليها الباحثون ، وأرسل اليها في طليعة المرسلات مجموعة من الكتب العربية والتركية والفرنسية تشمل على

(١) أنظرها بعد خطابه المنشور في هذا الجزء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ألف مجلد ، وعهد مجمعنا الى العلامة الشيخ كامل الغزي بأن يتولى مع إخوانه الأعضاء إدارة هذه الخزانة الحلبية .

وأما أنطاكية عاصمة الشام الأولى فقد خشي المجمع العلمي من بغي اللغة التركية على العربية ، وأراد أن يشدَ أزر لغتنا القومية في تلك الربوع لتثبت على نوائب الدهر ، ولاجل تحقيق ذلك اختار أحد أعضائه في أنطاكية وهو العلامة الشيخ محمد زين العابدين وعهد اليه أن ينظم سجلا بخزائن الكتب التي لا تزال محفوظة في بعض مدارس أنطاكية وجوامعها ، وأرسل اليه مجموعة كبيرة من الكتب العربية ، كما أرسل مثل ذلك مجموعة كتب إلى الزبداني ، ومثلها إلى جبل الدروز بالأمس وجبل العرب في هذه الأيام .

والمجمع العلمي العربي أول معهد عُني في دمشق بآثار البلاد فأنشأ وصنع على عينه دار الآثار الدمشقية ، وكان فاتحة أعماله في هذا السبيل أن أوفد أول بعثة أثرية كنت من أعضائها الى تدمر وحمص ، فحمل إلى دمشق كثيراً من نفائس الآثار منها رأساً حجريّاً كبيراً من الصخر البركاني الأسود عثر عليه في حديقة حمص ، ويعتبر هذا الرأس في رأس الآثار الحجرية المفيدة ، وعلم المجمع العلمي بوجود كثير من العاديات والتحف الأثرية القديمة في منازل الوجوه والاعيان فاستهداهم كثيراً منها ، وبذلك تكاثرت الاثار القديمة في صحن العادلية وغرفها ، وأيقن المجمع أنه لا قوام للاثار إلا بإرسال طالب علم الى باريس ليدرس فيها على أساتذتها أصول علم الاثار واللغات السامية القديمة ، فأرسل للتخصص بذلك الأمير جعفر الحسني فقام بالمهمة العلمية التي أوفد إلى باريس من أجلها خير قيام ، وبعد نيل شهادته الأثرية عاد الى دمشق وشرع ينظم آثارها ، وتزايدت هذه الاثار الى أن أصبحت دار المجمع أو المدرسة العادلية لا تستوعب جميع معروضاتها ، فظل كثير من نفائسها مخبوءاً في الصناديق فشرعت دولة الجمهورية السورية في بناء دار آثار لها ستكون من أجمل أنواعها في الشرق إن شاء الله .

أما دار المجمع العلمي العربي فقد كانت من أرقى مدارس العلم بدمشق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتعرف بالعادلية الكبرى نسبة للملك العادل سيف الدين شقيق الملك الناصر صلاح الدين الايوبي ، وقد بدأ بانشائها سنة ٦٥٨ للهجرة نور الدين محمود زنكي و بعد وفاته بنى الملك العادل بعضها ثم توفي ودفن في تربتها الموجودة ، فأتمها ولده الملك المعظم ؛ وقد افتتحت للتدريس في يوم مشهود حضره السلطان المعظم ووجوه دولته وكبار العلماء والاعيان ، فالقى فيها درس الافتتاح القاضي جمال الدين المصري ، وممن درس بها قاضي القضاة بهاء الدين السبكي وامام النحاة ابن مالك الذي كان يسكن داره حارسها اليوم وكان يقف وينادي على بابها لتأدية أمانة العلم : هل من طالب علم ، هل من قارئ نحو ؟ وفي العادلية كان يقيم مؤرخنا العظيم ابن خلكان وله فيها ذكر وعبر ، وفيها أتم النعيمي تأليف كتابه (الدارس في المدارس) الذي يبحث عن مدارس دمشق إبان نهضتها .

وكان آل المنيني يقطنون هذه المدرسة الشافعية الكبرى بحق الولاية عليها فسعت الحكومة الفيصلية لتحرير العادلية للبحث العلمي ، وبهمة حاكمها العسكري السيد رضا الركابي الذي كان أكبر العاملين على انشاء المجمع العلمي وداري الكتب والاثار ، أعطت الحكومة الى آل المنيني مبلغ ٢٠٠٠ ليرة مصرية لينزلوا لها عن حق التولية ، ثم أنفقت لترميم العادلية على الاسلوب العربي مبلغ ٢٥٠٠ ليرة مصرية فتماسك بنيانها كثيرا ، حتى أصبحت تصلح لاجتماع أعضاء المجمع ومناقشاتهم ومحاضراتهم العامة .

ان المجالس الاسبوعية التي كان يجتمع فيها الاعضاء ليتناقشوا في الاوضاع الادارية والمصطلحات العلمية هي من أعمال المجمع العلمي المباركة التي ساعدت كثيراً على انتشار اللغة الفصحى ورسوخها ، ومثلها المحاضرات العامة التي كان يلقيها الاعضاء على الرجال والنساء ، بله كان يرسل بعض أعضائه لالقاء المحاضرات في غير دمشق من البلدان الشامية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان المجمع يقيم حفلات التكريم أو التأبين لمشاهير علماء الاقطار العربية الذين خدموا العربية نثراً وشعراً ، سواء أكانوا من أعضاء المجمع أم من غير أعضائه ، وفي ذلك ما فيه من التنشيط والتقدير وتوثيق أواصر الوحدة العربية العلمية والقومية جميعاً ، ومن هذه الحفلات الاعياد الادبية القومية كمهرجان أبي الطيب المتنبي الذي جمع من شمل الامة العربية باجتماع كثير من علمائها وأدبائها ، وبث في فتيان الامة روح الاجلال لادبائهم الخالدين ، وزاد كثيراً من الابحاث المتنبئية شرحاً وتفصيلا .

والمجمع العلمي هو المقترح الاول لانشاء كلية الآداب التي خرجت على ضيق ملاكها كثيراً من الادباء والمعلمين فسدت بذلك ثلمة واسعة كانت الحاجة حاقّة إليها .

ومن أظهر أعمال المجمع العلمي انشاء مجلته العلمية التي تعنى بالابحاث الادبية من لغوية وتاريخية ، وقد بلغ عدد مجلداتها السنوية خمس عشرة مجلدة فضلا عن الرسائل الادبية التي بعثها بالنشر من مرقدها وعددها يزيد على عشر يرى قارئ المجلة اسماءها على غلافها .

ومن أعمال المجمع العلمية استنساخه لنوادر المخطوطات المخدومة من خزائن دمشق والاقطار العربية والغربية إتماماً لمجموعة المخطوطات الظاهرية ، ومنها تيسير السبيل على العلماء والمستشرقين ليتمكنوا من معارضة المخطوطات التي يريدون نشرها على مخطوطاتنا ، ومساعدتهم بذلك على تصحيح ما في خزائنهم من آثارنا العربية .

وكثيراً ما ساعد المجمع العلمي المؤلفين في دمشق على تصحيح كتبهم العلمية والمدرسية قبل طبعها ، وكثيراً ما درب أفاضل الشبان على أصول البحث العلمي فاصبح منهم الكتاب والمؤلفون .

ومن الذرائع التي توسل بها المجمع العلمي لتنشيط روح البحث والتأليف في بلادنا توزيع (الجوائز العلمية) على المجلين من المتسابقين في الابحاث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلوبة ، اذكر على سبيل المثال منها : جائزة السيد فخري البارودي لمن يضع أمثل كتاب في تسهيل الهجاء ، وجائزة السيد محمد سعيد اليوسف لمن يؤلف أحسن كتاب في تقدم البلاد السورية ، وجائزة السيد خالد العظم لمن يصنف أفضل كتاب في التربية .

وقد رأى المجمع العلمي أن دار الكتب الظاهرية ينقصها آلة لتصوير الكتب تصويرا شمسيا أسوة بدور الكتب الراقية في ديار الغرب فاشترى آلة من أتقن آلات التصوير وشرع يصور للعلماء والمستشرقين ودور الكتب الجامعة ما يُحتاج اليه من مخطوطات الظاهرية ، والتصوير أصح في نظر العلماء من النسخ لأن الآلة تنقل المخطوطة كما خطها كاتبها نقلا تاماً لا مسخ يمازجه ولا تصحيح يطرأ عليه ، أما النسخ اليدوي فما يتهم ولا يطمئن قلب المحقق اليه ، وكثيراً ما كان الناسخ ماسخا .

والمجمع العلمي عازم على طبع كتاب جليل يعتبره العلماء مع كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر من مفاخر دمشق ، وهذا الكتاب (الدارس في المدارس) للنعيمي يبحث عن مدارس دمشق في عصور نهضتها العلمية . وعن أوقافها ومدرسيها ومن تخرج فيها من العلماء والادباء مع تراجم المشهورين منهم ، وقد اشترى المجمع العلمي جميع ما يحتاج طبع هذا الكتاب اليه من الورق الجيد ، وهو لا يزال يعد بقية العدد لاكمال ضبطه وتسهيل طبعه قريباً .

وقد أشاد المجمع العلمي بذكر دمشق ونهضتها العلمية ، وأكسبها والدولة السورية التي هي عاصمتها اسما ممجدا وشرفا مخلدا ، فان علماء الامم الغربية الراقية ولا سيما المستشرقين منهم وأكثرهم أعضاء المجمع العلمي العربي قد أصبحوا يلهجون باسمه ويرسلون الى مجلته بابحاثهم العربية ويدعونه الى مؤتمراتهم العلمية ، فكل ما أنفق على المجمع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العلمي من المال لا يبلغ معشار ما نالته دمشق من حسن الاحدوثة وجميل الذكر .

هذا والمجمع العلمي العربي الذي عاش في الحكومات السابقة ولم تجرأ على أن تصيبه باذى لايخشى عليه على عهد هذه الدولة العربية التي يعرف رجالها بجهادهم في سبيل العروبة ، لا سيما والقائم اليوم على شؤون المعارف من بينهم هو الطبيب والعالم الاديب السيد عبد الرحمن الكيالي الذي ما فتئ يبذل جهده في معالجة قضية المجمع العلمي ، ومن أحرى من الطبيب بتشخيص الداء ووصف الدواء والسلام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net